

ضيعة دار تينجتون ومدرسة التربية التجريبية بها^(١)

بقلم عبد العزيز أصبي

عضو هيئة دار العلوم بالمجلة

٢

وربما كان أهم ما استدعى عجبى خلال الأسبوع الأول في هذه المدرسة ما يسمونه « الحرية المطلقة » ، فلقد زرت فصلا به اثنا عشر تلميذا (بنين وبنات) ولاحظت أن بعضهم كان مكبا على إتمام صورة ملونة لمنظر طبيعي ، وآخرين ينسجون على النول ، والمدرسة تقرأ قصة تاريخية للبقية التي التفت حولها التفاف الأطفال حول أمهم . وقد يكون من المناسب هنا أن أشير إلى أنني كنت ألاحظ بعض التلاميذ يتسللون إلى حجراتهم (حجرات نومهم) من حين لآخر لاستعمال الفونوغراف ، وإدارة المدرسة تعلم هذا ولا تراه خروجاً على النظام .

(٥) قد يكون من السهل إدراك تلك الحقيقة وهي أن المدرس مكلف بترك الموضوع الذي يتناول شرحه إلى موضوع آخر يقترحه التلاميذ إذا علمنا أن بالمدرسة مدرسا لكل خمسة تلاميذ ، وأنه من الممكن تطبيق هذه القاعدة بسهولة . وقد سألت أحد المدرسين عن موقفه إذا طلب بعض التلاميذ تغيير موضوع المناقشة إلى موضوع آخر ورفض الباقون ، فذكر لي أنه في مثل تلك الحال يتبع رأى الأغلبية ويترك للأقلية الخيار في عمل ما يشاءون أو ترك مكان الدراسة نهائيا إلى أى عمل آخر يريدون . وما لاحظته على العموم هو أن التلاميذ يملون بسرعة كل ما كان خاليا من التشويق والنشاط الجسمي ، فقد حدث أن اقترحت إحدى المدرسات ذات مرة إعطاء قطعة إملاء وابتدأت تملي القطعة على عشرة

(١) راجع المقال الأول في العدد الأول من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم

تلاميذ ، ولكن ما مضت بضع دقائق حتى قال أحد التلاميذ : هذا يكفي . لم تشأ المدرسة أن تقبل هذا الاقتراح واستمرت في إملاء القطعة ولكنها طلبت من ذلك التلميذ أن يعمل أى شيء آخر إذا لم يرد كتابة القطعة . وقد لاحظت هذه الروح تسرى من تلميذ لآخر حتى انتهت المدرسة باملاء القطعة على ثلاثة تلاميذ فقط .

وبالرغم من بعض المزايا التي تنتجها حرية اختيار التلاميذ لموضوع الدرس فإني لا أعاضد أنصار هذه الفكرة ، وأرى أنها قد تستغل - وهو الغالب - في إضاعة الوقت والعبث ، وقد لا يمكن اتباعها في الفصول كبيرة العدد . على أنه من المستحيل أن تترك للتلميذ حرية اختيار موضوع الدرس ما دام هناك منهج دراسي معين يجب إكماله .

(٦) قادتنى الضابطة إلى بعض حجرات نوم التلاميذ ، ثم أخذت تشرح لى أهمية الاعتماد على النفس منذ الصغر ، وضربت لى مثلا بتلامذة المدرسة حيث ينظفون حجراتهم وفراشهم بأنفسهم ، وبينما هى كذلك فى حديثها إذ أبصرت بعض أعقاب السجائر على مكتب إحدى التلميذات ، فقلت : وما هذا ؟ أهو اعتماد على النفس أيضا ؟ فابتسمت ثم قالت : هذا أثر من آثار الحرية التي نمنحها لتلاميذنا ، ولا نرى ضيراً فى هذا إذ أن التدخين شيء ثانوى ككثير من الأشياء الثانوية المباحة ، وما دام التلميذ يميل إلى التدخين - كما يميل إلى الأكل أو الشرب أو الذهاب إلى السينما - فلندعه وخير لنا وللتلميذ أن يشرب الدخان علنا من أن يعمل ذلك خفية . ولا أريد أن أقول : إن كل التلاميذ يشربون الدخان وإنما ليس هناك ما يحول بينهم وبين ذلك إن أرادوا . ولو بحثنا لوجدنا أن أغلب أولئك الذين يشربون الدخان إنما بدموه خفية ورغم إرادة والديهم أو أولياء أمورهم ، ولم تفلح صرامة آبائهم وشدتهم فى أن تحول بينهم وبين شربه . وفى ذلك من الجبن الخلقى ما يجد المرء مندوحة عنه .

(٧) إن تكوين العادة الطيبة منذ الصغر أمر ضرورى قرره علماء النفس والمرءوسون ، وشعور الطفل بضرورة اعتماده على نفسه منذ صغره ، وتحمله مسئولة

القيام بما يحتاج إليه متى استطاع لها أثرهما الصالح حين تصبح الحياة جهاداً ومغالبة .
ولهذا أعجبنى النظام الذى تتبعه مدرسة دارتينجتون مع تلامذتها من تكوين
عادة الاعتماد على النفس ، وتحمل المسؤولية منذ الصغر . يتضح هذا فى تكليف
التلاميذ بتنظيف حجرات نومهم ، ومسح أحذيتهم ، واعداد مائدة الغذاء ، وحمل
الأخشاب من الغابة إلى حجرة الأعمال اليدوية .

وليس غريباً أن يعلم القارئ أن تلامذة هذه المدرسة قد حفروا بأنفسهم
بحيرة كبيرة للسباحة داخل بنيان المدرسة ، واشتركوا فى بنائها . والكبار منهم
يشتغلون كالعامل فى قطع الأخشاب ، وفلاحة الأرض برغبة ونشاط عظيمين .
ولا يخفى أثر تلك الخبرة الشخصية والممارسة العملية فى تكوين المعارف العامة ،
والوقوف على كثير من الحقائق والمعلومات التى لا يمكن فى الحصول عليها قراءة
كتاب أو سماع محاضرة .

والمدرس الخبير يعلم مقدار رغبة الطفل فى مباشرة الأعمال اليدوية . وفى
استغلال نشاطه الجسمانى فى أى عمل يستدعى الحركة . فإذا لم يستغل ذلك النشاط
فيما هو مفيد ، ونحت اشراف المدرس كان لابد ان يجد منفذاً لاستنفاده فى
ناحية أخرى محوطة بالضرر . ومعرضة للأخطاء .

- ويحسب أن أشير هنا إلى عدم إشراف التلاميذ فى الألعاب الرياضية ككرة
القدم ، والهوكى ، أو الكركت ، كما هى العادة فى المدارس الانجليزية ، إذ أن
إدارة المدرسة ترى أن نشاط التلاميذ الجسمانى مستغل إلى أقصى ما يمكن فى الأعمال
اليدوية ، والفلاحة وغيرهما . ولهذا لا ترى داعياً لمجاراة المدارس الأخرى فى
الإغرام بالألعاب الرياضية (Allietics) إلى حد العبادة ، وإنما تعتقد فى الألعاب
الرياضية كوسيلة لجلب السرور ، وحفظ توازن الجسم . هذا هو رأى مديرى
المدرسة فى تقريرهم الأخير .

(٨) - إن فكرة تنشئة الطفل فى بيئة ديمقراطية ، خالية من مظاهر الحياة
الكاذبة ، والتصنع الذى لاحاجة إليه قد حدث بمديرى مدرسة دارتينجتون إلى
(٩ - صحيفة دار العلوم)

إلغاء كل ما يسمى ، لقباً ، فهم ينادون بعضهم بعضاً بأسمائهم العادية فقط . ولا يحسب القارىء أن معنى هذا أو نتيجته هو عدم الاحترام ، فإشاهدته من عطف الكبير على الصغير ، واحترام الصغير للكبير اقنعني بصلاحيه تلك النظرية . كنت جالساً مع أحد المدرسين أثناء بعض الفسح (الواقع أنها لم تكن فسحة وإنما هي فترة راحة بسيطة) وإذا بتلميذ يحمل زورقاً خشبياً صغيراً في إحدى يديه ، وكتاباً في اليد الأخرى قد دخل علينا منادياً : كلارك (اسم المدرس) أسمح بإرشادى إلى كيفية إتمام ذلك الزورق ؟ أخذ المدرس الكتاب من يد الطفل ثم شرح له ما يجب عمله ، وحينئذ التفت إليه التلميذ قائلاً : أشكرك ، وانصرف . ذلك مثل من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن شرحها هنا .

إن المدرسة تتحاشى جهد الطاقة أن تشعر اليلبد بأى سلطة صادرة من المدرس ، اللهم إلا ذلك الإشراف الطبعى : إشراف الكبير القوى على الصغير الضعيف ، ذلك الإشراف المصحوب بالعطف والحلم والحب . ولما كان نظام المدرسة مؤسساً على نظام الأسرة - والمربون يعتبرون إخوة كباراً للتلاميذ - لم تكن هناك حاجة لاستعمال الألقاب بين أفراد الأسرة الواحدة .

(٩) يشير تقرير المدرسة إلى : أنها تهمل نهائياً العادة المتبعة فى المدارس وهى إعطاء التلاميذ درجات على أعمالهم المدرسية ، وإيجاد روح المنافسة بين التلاميذ بحجة أنهما ضروريان لاستبقاء النظام ورفع المستوى العلمى بالمدرسة ، فللمنافسة فى المدرسة (دارتينجتون) لا يلجأ إليها مطلقاً . والسبب فى هذا :

أولاً - أن التجربة لم تثبت قطعياً ، أن المنافسة ذات أثر صالح ، فبينما تستحث بعض التلاميذ على العمل إذ تثبط همة الباقين الذين يحتاجون فى الحقيقة إلى تشجيع .

وثانياً - أن فى اعتماد المدرس على عامل خارجى لاصلة بينه وبين المادة التى تدرس دليل على فشله فى جعل المادة مشوقة بطبيعتها ، وانها لم تعد بعد موضع رغبة التلميذ ، ومبعث نشاطه .

وثالثاً - أن فی اهتمام المدرس بأيجاد روح المنافسة بین التلامیذ فی موضوع من الموضوعات قد یؤدی إلى الاسراف فی تلك الناحیة وإهمال ناحية أخرى أهم وأنفع . ومع أننا نعتقد بصدق النظریة القائلة : إن حب المنافسة طبعی فی التلامیذ ، لانرى ضرورة لجعل المنافسة أداة فی ید المدرسین یستغلونها دائماً فی غیر موضعها الطبعی ، وبعبرونها أهمية أكثر مما یجب . وقد یسأل القاری : وما هی إذن طریقتهم فی الامتحانات ؟ والجواب علی هذا من التقرير هو أن المدرسة لاتعد لأى امتحان . ورائدها فی الدراسة هو تزوید الطفل بكل ما یرغب فی معرفته ، وتمهید كل الوسائل الممكنة لتثقیفه وإرشاده ، وإتمام غریزة حب الاستطلاع ، وتشجیع نشاطه الذاتى ، وإعطاؤه الفرصة الكافیة لتنمية مواهبه واستعداده فی أى ناحية من نواحي الحیاة . وعلى ذلك لا داعى لتعقیده بأى منهج دراسى معین . ومع ذلك فبعض التلامیذ الكبار الذین یرغبون فی الالتحاق بأحدى الجامعات یجدون الفرصة الصالحة للدراسة المنظمة علی أیدی مدرسین قادرین . وفى اعتقادنا أن بعض التلامیذ عندهم الاستعداد للدراسة الأكادیمة ، وآخرین لم یوهبوا ذلك الاستعداد ، ولهذا نجد من العبث محاولة إعدادهم لأى امتحان عام ، ونرى من الأوفق إعدادهم لما خلقوا له ، والتعاون فی المدرسة غاية ووسیلة فی آن واحد ، فهو ضرورى فی المدرسة - كفاية - لأن المدرسة صورة مصغرة من الحیاة العامة ، والتعاون فی الحیاة العامة ضرورة لامندوجة عنها . وهو أيضاً وسیلة لتنمية روح المسئولیة فی الطفل ، والشعور بوجوده كمکائن منتج مفید يعتمد علیه فی ترقية مجتمعة ، والقیام بالواجب المشترك نحو الجماعة . وعادة التعاون تتضح وتنمو فی كل ما یقوم به الأطفال من قطع الأخشاب ، أو إعداد مائدة الطعام ، أو مساعدة کبیرهم لصغیرهم ، وقویهم لضعیفهم .

(١٠) لما كانت الفسكرة فی تأسيس تلك المدرسة هی اجراء تجارب مختلفة فی التریة كان من الضروري إذاً أن تترك للتلامیذ الحریة الكافیة لعمل ما یشاؤون ولإدارة أنفسهم بأنفسهم Self - government . ولهذا تركت المدرسة للتلامیذ حق اختیار النظام الملائم لرغباتهم ومیولهم من غیر تكلف أو تضنع . فهم

يشتركون في تعيين أيام الإجازات السنوية ، وتحديد وقت افتتاح المدرسة في الصباح ووقت الغذاء أو الذهاب إلى النوم إلى غير ذلك من النظم المدرسية . وترى المدرسة أيضاً أن هذه الحرية في وضع أو الغاء أى قانون مدرسى وفقاً لرأى الأغلبية تكون في الطفل روح الديمقراطية ، وتحمله على احترام رأى الأغلبية ، وعلى الاعتداد برأيه كعضو في الأغلبية أو ضدها ، وتستحدث فيه الشعور بقوة الرأى ، وبضرورة التفكير المقرون بالتعلل قبل اصدار أى فكرة تتبعها نتائج تؤثر في تكوين مجتمعه .

وأثر تلك الحرية في وضع أو الغاء أى قانون مدرسى ينضح بجلاء في الإدارة المدرسية ، فأولئك الذين وضعوا القانون مسئولون عن تنفيذه وتطبيقه على أنفسهم . ومن ذلك يتبين أن سلطة ناظر المدرسة والمربين ضعيفة أو معدومة ، وأن ليس هناك سلطة عليا تملى رغبتها على مروضيها ؛ بل هناك احترام ، ورغبة ، واعتداد بالنفس .

وتعتقد المدرسة أن منح تلك الحرية للطفل - نظريتهم هي أن الحرية حق طبيعي للطفل - يكون فيه فضائل لا تكونها الشدة والإدارة الصارمة . ويعنون بتلك الفضائل : الشجاعة ، وحب الحقيقة ، والشفقة ، والاقدام . يقول ناظر المدرسة في كتاب أصدره عن التربية بعنوان : المدرسة :

« كلنا يعلم أن الطفل في المدرسة مجبر على أن يظهر الأدب ويلتزم النظام في بعض الفصول الدراسية ، بينما هو يظهر عكس ذلك في فصل آخر حينما يشعر أنه آمن من العقاب . ومن هذا نستنبط أن الفضائل التي أبقاها في الحال الأولى لم تكن نتيجة حب للفضيلة ورغبة في عملها ، وإنما كانت نتيجة الرغبة في تجنب العقاب . . فلو تركنا إذاً للطفل - أو الأطفال - الحرية في اختيار النظام الذي يلائم طبيعتهم لصدرت الفضيلة عنهم بريئة ظاهرة لا يصحبها تصنع أو نفاق .

(١١) لم أشعر بذلك الاحترام الشخصى بين تلاميذ أى مدرسة زرتها في إنجلترا أو قمت بالدراسة فيها ، كما شعرت به بين تلامذة مدرسة دار تينجتون . فرغنا عن تلك الحرية المطلقة التي يتمتعون بها لا يتعرض أحدهم لآخر بانتقاد مهما كان

مخطئنا . ولما كان التلامیذ مسئولین بالتضامن عن تصرفهم ونظامهم كان طبعیا أن یأخذوا وسیلة لتنبیه المخطئ إلى سوء تصرفه أو خرقه النظام . هذه وسیلة سلیة محضة ، فالتلیذ الذی لا یحضر إلى حجرة الطعام فی المیعاد الذی حدوده یؤكل غذاؤه ، والتلیذ الذی یشی معاملة زملائه یقاطع . ولیس لتلیذ أی حق فی التعرض لآخر بانتقاد شخصی ، وإنما یترك هذا لروح الاعراض والنفور التی تبدیها الأغلیة نحو المخطئ .

(١٢) وأخیرا ما موقف ناظر المدرسة ومدریها إزاء تلیذ عرف بالکسل والإهمال أو خرق النظام أو تحدی القوانین التی اشترك فی وضعها ؟ یقول ناظر المدرسة فی کتابه (المدرسة) : « أستطیع أن أحکم من تجاربی فی التعلیم أن الوسیلة المستجة فی حالة صدور أی سوء تصرف أو إهمال من التلیذ أن یجتمع طائفة من التلامیذ وینهم ذلك التلیذ المتهم ، مع طائفة من المدرسین وأن یبحثوا المسألة باشتراك وبصراحة وحرية لكل متکلم . ومهمة المدرس هنا هی توضیح الفكرة ، والتعبیر عن الرأی العام ضد هذا التصرف ، وتسهیل مهمة المناقشة وتنظیمها بین التلامیذ وإذا قصر المدرس واجبه علی هذا فقط فإن التلامیذ یستطیعون أن یعطوا حکما معقولا ، وأن یقرروا رأیا سدیذا ، وأن یجدوا حلا مرضیا لقضیتهم . ولیس من الممكن اتباع هذا النظام الذی أشیر به إلا إذا كانت المناقشة حرة مصحوبة به لماذا ، وكيف ؟ ، وكان المدرسون الذین یشترکون فی المناقشة معتقدين بسلامة تفکیر الأطفال ، وقدرتهم علی الوصول إلى نتیجة منطقية ، إن الطریقة المتبعة فی المدارس لاصلاح الطفل وتقویمه هی العقاب أو التهید بالعقاب ولكنی أرى أن العقاب غیر مجد . وإنی لأتحدی أولئك المدرسین الذین یدینون بضرورة العقاب لتقویم التلیذ أن یجیبوا علی هذا السؤال : ألیس التلیذ الذی عوقب لذنب من الذنوب هو بعینه الذی یقترف الذنب مرة أخرى ؟ ، وإذا فما فائدة العقاب ؟ إذا كان للعقاب أی قيمة فی التریة والتهذیب فلتكن إرجاع الطفل إلى أحضان الفضیلة التی انحرف عنها . ولكن العقاب کوسیلة لترك الرذیلة فقط لیس بذی قيمة فی التریة . ولأعرض علی القاری حادثة شخصیة فی ظنی أنها کافیة لاقناعه

بعدم فائدة العقاب لاصلاح الطفل : عندى الآن تلميذ فى المدرسة ، حضر إليها بعد أن أمضى ثلاث سنوات فى مدرسة أخرى كان فيها يضرب بالعصا يومياً . ولو أن العقاب يكون الفضيلة لأصبح ذلك التلميذ ملاكاً ، ولكن النتيجة أنه أصبح يرى فى المدرسين وناظر المدرسة أعداء الداء له ، وأنه أصبح لا يبالي بخرق النظام وبجابه الإدارة بالخطأ . ولم ينتج العقاب فى قسوته ، ووقاحته ، وكسله ، وخبه للتخريب أى إصلاح ؛ بل بالعكس تحول التلميذ من سبى إلى أسوأ ، ولكننى عاملته بالتى هى أحسن واتبعت معه الرفق ، وصادقته ، فاعتدل وبدت عليه علامات الاستقامة ، وهو الآن فى طريق التقدم الخلقى ، ولن يمضى زمن طويل حتى يصبح عماداً فى مجتمعة .

هذا هو رأى ناظر المدرسة فى العقاب أو الزجر أو التوبيخ ، وفى اعتقاده أن الرفق ولين الجانب وحسن السياسة تقود إلى تقويم المعوج . أما إذا أعيت كل هذه الوسائل فهناك الحل الوحيد الذى يشير اليه التقرير السنوى بالعبارة الآتية : " تحتفظ المدرسة بحقها المطلق فى فصل أى تلميذ ترى أن بقاءه بين التلاميذ غير مرغوب فيه ، وحكم ناظر المدرسة فى هذه الحال نهائى لا يقبل استئنافاً . " لقد أطلت القصص ، ولعلى مع هذا قد وفقت لإعطاء القارىء صورة قريبة للحقيقة من مدرسة دار تينجتون ونظامها .

ولعله من المناسب قبل أن أتمم المقال أن أشير إلى طرق التدريس المتبعة : المدرسون لا يعتقدون بصلاحيه طريقة خاصة فى التدريس فهم يرون بحسن ومثالب فى كل طريقة ولذا يختارون ما هو أوفق لتلاميذهم ، وأنسب لظروفهم ، وأصلح لمجتمعهم . وهم يتبعون - مع صغار الأطفال - الأسس العامة لطريقة فرويل ومدام مونتسورى ، وكذلك طريقة دلتون ، ولكنه بشير من التهذيب والتفقيح .

ولأختم اذا حديثى بما وعدت القارىء به حين قابلت صاحب الفندق ؛ قاللى صاحبى وهو يجاورنى لن أخشى شيئاً على أبنائى الثلاثة الذين يذهبون إلى تلك المدرسة خلال عهد الدراسة ، وإنما أنظر إلى مستقبلهم بشيء من الخوف والشك

وذلك لسببين : الأول هو أن تلك الحرية المطلقة التي يتمتعون بها الآن سيفاجئون بفقدائها بمجرد ترك المدرسة ، وسيرون أن الحياة العملية صورة مخالفة لتلك التي ألفوها في مدرستهم . وحينئذ يواجهون من الصعوبات ، وقود المجتمع والقوانين المفروضة ما لم يحلوا به . وسيجدون أنفسهم غرباء في معتك الحياة العامة عاجزين عن رياضة أنفسهم على إطاعة النظم الموضوعه ، والخضوع لسلطة فوق سلطتهم ونفوذ أقوى من نفوذهم . ولن يكون لهم حق اختيار نظام ، أو تقرير مصير ، وسيكونون أشبه بملائكة بين شعب من الشياطين .

أما السبب الثاني فهو أن هذا النوع من التربية — على ما به من سمو وكال — صالح لأبناء الأرستقراط والأثرياء الذين يجدون من ثروة آبائهم ما يمكنهم من اختيار الحياة العمالية التي تتفق مع تنشئتهم وتربيتهم الأولى . أما أبناء الفقراء — مثل — الذين يعتمدون على كسب عيشهم بأنفسهم ولا يجدون مندوحة عن الاتصال بالجمهير ، والاندماج في المجتمع كعضو حيوى عامل ، فستكون تربيتهم الأولى مبعث يأس وقنوط حينما ينزلون مضمار الحياة الحقة . وأرى أن اعتراضى صاحبى جوهرىان ، وجديران بالتفكير واتخاذ الحيلة لمستقبل الأطفال ، فالتربية مهما اختلفت أغراضها يجب أن تعد طفل اليوم لأن يكون رجل المستقبل ، ولن تكون التربية كاملة إلا إذا هيأت الشخص للحياة العامة . ويرد مديرو المدرسة على هذه الاعتراضات بأن الحياة العامة مملوءة بالعيوب والأخطاء ، والنظم العتيقة ، وواجب التربية أو غايتها تهذيب تلك النظم العتيقة وإصلاحها ومعالجة تلك العيوب والأخطاء ، وهذا غير ممكن إلا إذا أعدنا الطفل للنيل الأعلى من الحياة ، وربناه التربية السامية للحياة التي يجب أن تكون لا للحياة كما هي الآن .

عبد العزيز أمين